نظراتهم أو آرائهم النقدية عند استماعهم لبيت شعر أصاب المفصل ، أو حكمة بالغة ، أو مثل دقيق . وفي فطرية مُدَرَّبة يعبر الوليد بن المغيرة عن مدى تذوقه لروعة الأداء القرآني بعد أن استمع لبعض منه ، فيقول إنه استمع من محمد كلامًا ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ ، ثم يصفه بناحية مادية تتمثل في حلاوته ، وناحية معنوية تتمثل في طلاوته ، ثم يدقق هذا التذوق – باعتبار ما يهدف إليه التعبيرُ القرآني – في أن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق ، ثم يختم كل ذلك بمقارنة عامة تجمع بين القرآن وغيره من ألوان الأداء الأدبي – فيجعله في منزلة لا تعلوها منزلة أخرى .

ومما لا شك فيه أن هذا التذوُّقَ لا بد أن تسانِدَهُ – أحيانًا – طبيعةٌ فنية أو حاسة نقدية ، تدرك بعضَ القيم التعبيرية المتميِّزة في الصورة أو في التركيب ؛ لأن المقارنة في جوهرها تعتمد – بديهيا – على إدراك خواصٍّ تمكِّن من إصدار الحكم ، وتهيئ لاستنباط أوجه الاتفاق والاختلاف .

ويمكن أن نتلمس – أيضًا – بذورَ الاتجاه النقدي فيما ذكرته الرواياتُ عن عملية النقد الذاتي التي يقوم بها الشاعرُ لنفسه ، معاودًا النظرَ فيما نظمه ؛ ليخلِّصَه من الغث والساقط والقلِق . وقد عبر امرؤ القيس عن ذلك في قوله :

أذودُ القوافيَ عنّي ذِيادا ذِيادَ غُلامٍ جَريءٍ – جَرادا
فَلَمّا كثُرْنَ وعنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شتى جِيادا
فأعزل مَرْجانَها جانبًا وآخُذُ مِنْ دُرِّها المُستَجادا [1]

(١) ابن رشيق القيرواني : العمدة ، ج ١ . ص ١٣٤ .